الشباب ومشكلاته

هل يعقل لشباب يجهل تاريخ بلده أن يقوم بإخراج هذه الدولة من نفق مظلم؟

هناك العديد من التساؤلات، علينا طرحها حتى نتمكن من تحديد المشكلات التي تواجهنا، ومن ثم نبحث عن إيجابيات، ثم حلولٍ لتلك المشكلة، فعلينا أن نبدأ بسؤال هام وهو: الثقافة في مواجهة من؟: الجهل - الفقر- التخلف - الرجعية – التطرف؟... وهل تؤمن الدولة بدور الثقافة وأهميتها في قيادة هذا التغيير؟
وهل نؤمن بأننا أمام جهلٍ ثقافي يمثل ٨٥% ، وأمية ٤٥%؟

يجب علينا أن نعترف أننا في مرحلة الغرق، وبلادنا غارقة في الفساد، ولدينا العديد من الأخطاء من جميع السلطات الحاكمة، فلم يحاولوا أن يجدوا خطة للتطوير، فكل الخطط الموجودة منفصلة تمامًا عن الواقع المعيشي.

وأتعجب من عدم دعم الشباب في تحمل مسؤولية النهوض بالدولة، والعمل على تنمية واستثمار الطاقات الشابة التي تعاني من البطالة، وتصبح مادة خصبة للجهل والتطرف، كما أتعجب أيضًا من عدم الاهتمام بثقافة نهر النيل، والحرف اليدوية والمهن وتجاهل القرى النائية والعشوائيات وسكان المقابر.

إننا في أمس الحاجة لحلول سريعة تمنح الشباب الفرص وتعطي المجتمع الخدمة الثقافية المطلوبة للخروج من الأزمة الراهنة للبلاد، خاصة في ظل الظروف الراهنة من استفتاءات وانتخابات، وإنقاذ البلاد مما نحن فيه.

ولابد أن نعي أن الجهل والتخلف هما السبب الرئيسي وراء هذا الفشل في تحقيق نهضة هذا البلد.

ولكي لا نجهض أهداف ثورة ٣٠ يونيو التي قامت على أساس سياسي واقتصادي ولم تواكبها ثورة ثقافية للمجتمع، مما قد يؤدي هذا الجمود الثقافي إلى عرقلة التقدم السياسي والاقتصادي، وهذا طبعًا يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه من تدمير اقتصادي وسياسي، ولا نريد تكرار أخطاء الماضي، فيما كانت تقوم به الحكومات السابقة من تخلف شعوبها، وساهمت بشكل كبير في نشر هذا التخلف الثقافي بين ربوع الوطن وتهميش الدور السياسى لكل

طوائف الشعب، مستخدمة العنف والقهر تارة، وتهميش المبدعين والمثقفين ورفع مكانة التافهين والمغالاة في رفع أصواتهم، وتدمير العملية التعليمية لإنشاء أجيال كاملة تعاني من الأمية الثقافية تارة أخرى.. هل يعقل أن يكون كل هذا حتى لا يكون لهم منازع على السلطة أو مقاوم لفسادهم؟ مع أنني هنا ألقي باللوم على الحاكم في شيء واحد هو تغاضيه عما يفعله المسؤولون بهذا الشعب من تخلف وقمع قد يؤدي إلى كارثة، قد تغرق وتظلم هذا البلد، وبدلاً من خروجنا من أزمة الجهل، أصبحنا لا نعرف الخروج من أزمة كبيرة حلت بهذا البلد في جميع مجالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية... إلخ.

أعتقد أنه لو تمَّ إجهاض ثورة الثلاثين من يونيو فسوف يكون السبب هو الجهل والتخلف الذي انتشر بهذا المجتمع، مثلما انتشر الفساد، حيث أن الجهل هو المناخ المناسب والتربة الصالحة لنمو الفساد، فهل يأتي اليوم الذي نتخلص فيه من الجهل والتخلف، ونوجد مناخًا صحيًا صالحًا لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية في هذا الوطن، وأن تحقق هذه الثورة كل أهدافها؟.

ولا ننسى أن ما حدث في الخامس والعشرين من يناير من مؤامرة وتخريب أدى إلى وصول جماعة إرهابية تربعت على

كرسي الحكم، هو نتيجة الجهل والعمالة والخيانة، وكل ما نعيشه في هذه الفترة من مهاترات هو نتيجة للجهل، وأصبحنا نعيش في عصر الفتاوى، كلٌ يفتي في أشياء من أجل أشياء، بكل جهالة للأمور، وما يقلقني أن الكل يصفق ويؤيد، وهذا أيضًا قمة الجهل والتخلف، فهل هذا نتيجة أننا أصبحنا نعيش بازدواجية في الشخصية، دون تفكير سوى بأنانية في إرضاء الطرف الآخر.!، المجني عليهم الذين يعيشون في جهل وقمع عبر كل الأزمنة، أرى أنه إذا استمر الحال كيفما هو عليه فإن الشيء الذي يزيد عن حده ينقلب ضده.

فكفانا تطبيلاً وتهليلاً بجهالة، لأنه حتى التاريخ مختلف، كلٌ حسب فترته الزمنية، وما كان يلازمها من ظروف، لذا يجب علينا أن نراجع التاريخ جيدًا وحسب كل الأزمنة.

أنا شخصيًا كنت أتمنى لو عاد بي الزمان إلى الوراء، وعشت زمنًا من أزمنة، إما محمد علي باشا، أو الخديوي إسماعيل، وإما زمن جمال عبد الناصر الذي ظل حتى الآن فى الأذهان مثالاً للكرامة المصرية، لما أعطاه للمواطن البسيط من حقوق إنسانية وإصلاحات تحقق فعلاً العدالة الاجتماعية والمساواة.

▪ دور محمد علي في بناء الدولة الحديثة :

هل يعقل أن الرجل الذي لم يولد على هذه الأرض ذو الأصول الألبانية، حيث تربى على أصول غربية واكتسب خبرته منها!، وعندما أُرسِل على رأس حملة عسكرية من أجل طرد الفرنسيين من مصر قام ببناء مصر الحديثة، وقام بتحقيق إنجازات مهمة كان الهدف منها هو جعل مصر دولة حديثة تستطيع منافسة الدول الأوروبية... عمل هذا الرجل على كسب حب الجماهير المصرية، كما تحالف مع البرديسي من أجل إبعاد الوالي العثماني الجديد أحمد باشا، وبذلك استطاع التخلص من الوالي العثماني، ومن ثم البرديسي بعد اندلاع الثورة ضده بسبب الضرائب الباهظة.

كما تقرَّب من علماء الأزهر، وكان على رأسهم الشيخ عمر مكرم، ووعد الشعب المصري بالعمل على إجراء إصلاحات، وتخفيض الضرائب.

في عام ١٨٠٥توجه العلماء إلى دار الحكمة، حيث قاموا برفع شكوى ضد الوالي العثماني خسرو باشا، وطالبوا بتعيين محمد علي باشا بدلاً منه.. أي أن محمد علي باشا أتى إلى الحكم

بتنصيب شعبي وليس بموافقة الخليفة العثماني.. وعمل على تثبيت حكمه، حيث طالب السلطان بمنحه تفويضًا دائمًا من أجل التصدي للأطماع الأوروبية، ومن أجل القضاء على القوى المصرية الداخلية المنافسة على الحكم، وقد جُددت ولايته عام ١٨٠٦، ومما عزز من مركز محمد علي باشا، وهو وفاة البرديسي، ومن ثم الألفي.

كما قام بإلغاء قانون الالتزام، على أن تُجمع الضرائب بصورة مباشرة إلى خزينة محمد علي باشا، كما قام بنفي زعيم العلماء عمر مكرم، نتيجة عدم موافقته على تخفيض الضرائب على الفلاحين، وطبعًا كان انحياز محمد علي للفلاح الذي دعمه في الوصول إلى الحكم ولم يخلف وعده لهم.

ومن أجل التخلص من المماليك قام بتجميعهم في القاهرة وإبعادهم عن أراضيهم، وفي عام ١٨١١ وجه دعوة لهم لحضور احتفال رسمي بالقلعة لتوديع الحملة المتجهة إلى الحجاز، حيث قام بذبحهم، وهذه الحادثة تُعرف بـ"مذبحة القلعة"... وطبعًا كان محقًا فيما فعله، لأنهم أصبحوا يشكِّلون عقبة في إصلاح ونهضة مصر بسبب ما كانوا يفعلونه.

ومن أهم حملاته العسكرية، حملته ضد الحركة الوهابية، وكان من أسبابها:

١- تكليف السلطان العثماني محمود الثاني له بانشغاله في الإعداد للقضاء على الأمراء من أجل بناء سلطته المركزية.

٢- عجز ولاة بغداد والشام عن القيام بأي عمل جاء ضد الحركة الوهابية الذين احتلوا الحجاز، مما يعتبر ضربة لهيبة الدولة العثمانية.

٣- التخلص من المماليك في جيشه وتحقيق بعض أهدافه.

ومن رغبة محمد علي باشا زيادة ثروة مصر، قام باحتلال السودان لتحقيق عدة أهداف:

١. رواج التجارة، وتجديد طرق القوافل التجارية بين شمال وادي النيل وجنوبه.

٢. القضاء على بقايا المماليك الذين فروا إلى بلاد النوبة وشمال السودان.

٣. ثروة المواد الخام، خاصة الذهب بكميات كبيرة في السودان.

٤. التخلص ممن بقي من جنوده من الألبان غير النظاميين.

٥. تجنيد السودانيين في جيشه.

٦. تحقيق وحدة وادي النيل.

وقام بعدة إصلاحات إدارية في مجالات (الزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات)، وفي عهده ازداد حجم التجارة في مصر، وأصبحت مركزًا تجاريًا مهمًا.

وفي مجال الإصلاحات العسكرية : اهتم محمد علي باشا بالجيش من أجل إقامة جيش قوي يعتمد علي هفي تحقيق أهدافه، فتشكلت نواة جيش محمد علي في البداية من الألبان والأتراك والمرتزقة، لكن عدم تجانسهم وعدم تقبلهم إرشادات الخبراء الأجانب، أدى إلى ضعفهم، مما جعل محمد علي يعتمد على المصريين من أجل بناء جيش منظم بمساعدة الفرنسيين، من أجل ذلك أقام محمد علي مدرسة في أسوان لتدريب فرق المشاة. كما أقام مدرسة للمدفعية وأقام فرق الإرشاد الطبية، كما باشر في بناء أسطول حربي.

كما قام بإصلاحات ثقافية لإيجاد جيل مثقف يستطيع الاعتماد عليه في تنفيذ مشروعاته، من أجل ذلك قام بإدخال الفكر الغربي عن طريق البعثات الطلابية التي تمَّ إرسالها، وعن طريق إقامة مؤسسات بإرشاد أوروبي.

كذلك أقام الأوربيون مدارس مهنية بمصر، دُرّست فيها اللغات الأجنبية (الإيطالية والفرنسية) وفي عام ١٨٢٧ افتتحت المدرسة

الطبية بمصر لتقديم الخدمات الطبية للجيش، وفي عام ١٨٣٦ أسس محمد علي باشا مدرسة للغات، هدفها ترجمة المؤلفات الأوروبية إلى العربية، وكان أول من أنشأ أول جريدة مصرية عُرفت باسم "الوقائع".

وإنجازات أخرى كثيرة قام بها محمد علي من أجل بناء مصر الحديثة.

واعتمد على مصادر مصر المالية، في تمويل إصلاحاته مع أنه استلم خزانة مصر المالية فارغة لا تحتوي على أي موارد، كما تميزت فترة حكمه بشموليتها جميع المجالات، وكان كل تركيزه على الجيش، وسخَّر كل هذه الإصلاحات لخدمة هذا الهدف، وكان إذا خيّر محمد علي بين أبنائه أو الجيش، كان يختار الجيش لأن الجيش كان بالنسبة له كيان الدولة القوية.

obeikan.com

▪ الخديوي إسماعيل : رائد النهضة المصرية

أما الخديوي إسماعيل الذي لقِّب بـ"خديوي مصر" فالإصلاحات التي قام بها لا تقل عن الإصلاحات التي قام بها جده محمد علي من إصلاح قضائي وإصلاح عمراني من أجل الارتقاء الحضاري بمصر والنهضة الاقتصادية والنهضة التعليمية والثقافية، حيث انبهر الخديوي إسماعيل بباريس أثناء تواجده فيها، ومن هنا نشأت ميوله الفرنسية التي لازمته طوال حياته وجعلته يسعى لأن يجعل القاهرة "باريس الثانية" ومن هنا اتجهت ميوله إلى تنظيم المدن وتخطيطها وتجميلها، وقد وجَّه كل عنايته في هذا الصدد إلى القاهرة والإسكندرية.

- أولاً : إعمار القاهرة :

من أعماله بالقاهر: إزالة تلال الأتربة التي كانت تحيط بها، والتي بدأ محمد علي في إزالتها... وتخطيطه شوارع وميادين جديدة كشارع الفجالة وشارع محمد علي وميدان الأوبرا... وأنشأ أحياء بأكملها، من أشهرها (حي عابدين والتوفيقية) وكان لفتح الشوارع والأحياء والميادين الجديدة فضل كبير في توسيع

المدينة وتجميلها، وتوفير الهواء النقي وتدبير الوسائل الصحية للسكان، وارتفاع قيمة المباني والأراضي وازدهار العمران.

وأهم الأحياء التي أنشأها (حي الإسماعيلية) وقد سُمي باسمه، لأنه هو الذي أمر بإنشائه، وكانت جهاته من قِبل أراضي خربة تحتوي على كثبان من الأتربة وبرك مياه وأراضٍ بها سباخ، فخططها وأنشأ فيها الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة، وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة، ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر (الدقشوم) ونظمت على جوانبها الأرصفة، ومدت في أراضيها أنابيب المياه، وأقيمت فيها أعمدة المصابيح لإنارتها بغاز الاستصباح، وسكنها الأمراء والأعيان.

وبنى مسرحًا كوميديًا، ومسرح الأوبرا، ونسَّق حديقة الأزبكية... وأنشأ كوبري قصر النيل ليصل الجزيرة بمصر؛ وتمَّ انشاؤه على يد شركة "فيف ليل" الفرنسية سنة ١٨٧٢؛ والكوبري الإنجليزي أو كوبري البحر الأعمى المسمى بكوبري الجلاء حاليًا ليصل الجزيرة بالجيزة، وقامت بإنشائه شركة إنجليزية في نفس السنة... وردم بركة الرطلى وأنشأ بها الشوارع المستقيمة، وأنشأ طريق المعبد بين القاهرة والأهرام (شارع الهرم) ورصفه بالحجارة، وكان إنشاؤه سنة ١٨٦٩ بمناسبة زيارة الإمبراطورة "أوجني" لمصر لحضور حفلات افتتاح قناة السويس...

ومدَّ أنابيب المياه في أحياء المدينة لتوصيل مياه النيل العذبة إلى البيوت، بعد أن كان يحملها السقاءون في القرب... وعني بكنس ورش شوارع القاهرة... وأدخل نظام الإنارة بغاز الاستصباح فأكسب المدينة بالليل بهجةً وجمالاً، وساعدت الأنوار على حفظ الأمن ليلاً.

وهو أول من شرع في إقامة تماثيل للعظماء في الميادين العامة، تخليدًا لذكراهم، فأمر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان أهم ميادين القاهرة والإسكندرية، الأول لـ(محمد علي) والثاني لـ(إبراهيم باشا) وقد نُصب في القاهرة سنة ١٨٧٣.

وأنشأ المسجد الحسينى وقام بإصلاح ميدان الرميلة الواقع بجانب القلعة... كما أمر ببناء حمامات حلوان، لما تبين من مزايا مياهها المعدنية الكبريتية، وعني بعمران هذه المدينة، وشيَّد بها قصرًا فخمًا وهو المعروف بـ"قصر الوالدة" على النيل... وخطَّط طريقًا من النيل إلى حلوان، وأنشأ السكة الحديدية التي تصلها بالقاهرة، وبلغ عدد سكان العاصمة في ذلك العهد ٣٥٠,٠٠٠ نسمة.

- ثانيًا : إعمار الإسكندرية :

ازداد عمرانها في عهد إسماعيل، فاختط فيها شوارع جديدة وأحياء جديدة، مثل شارع إبراهيم الممتد من مدرسة السبع بنات إلى ترعة المحمودية، وشارع الجمرك وشارع المحمودية، وفتح ستة شوارع أخرى ممتدة بين سكة باب شرقي والطريق الحربي الذي كان يحيط بالمدينة، وأنيرت أحياؤها بغاز الاستصباح بواسطة شركة أجنبية وأنشئت بلديتها للاعتناء بتنظيم شوارعها، وللقيام بأعمال النظافة والصحة والصيانة فيها، وتبليط كثير من الشوارع، وعملت المجاري تحت الأراضي لتصريف مياه الأمطار وغيرها، وعهد الخديوي إلى إحدى الشركات الأجنبية توصيل المياه العذبة من المحمودية إلى المدينة وتوزيعها بواسطة وابور مياه الإسكندرية.

وعُمرت جهة الرمل في عهده عمرانًا كبيرًا، واتصلت بالمدينة بخط حديدي وأنشأ بها الخديوي عدة قصور له ولذويه للإقامة بها في الصيف، وإليه يرجع الفضل في جعلها مصيف (القطر المصري)، وفتح شارعًا عظيمًا يبتدئ من باب رشيد، وينتهي إلى حدود الملاحة بزمام (المندرة)، مارًّا بالسراي الخديوية بالرمل، ومدَّ طريقًا من الملاحة إلى ترعة المحمودية.

وأنشأ حديقة النزهة على ترعة المحمودية وجعلها منتزهًا عامًا، وبنى سراي الحقانية التي أنشئت بها المحكمة المختلطة، وأصلح ميناء الإسكندرية.

وبلغ عدد سكان المدينة في عهده ٢١٢,٠٠٠ نسمة.

كما قام بإنشاء عدد من القصور، أشهرها قصر عابدين الذي جعله مقرًا للحكم، حلَّ محل سراي القلعة التي بناها محمد علي باشا، وقصر القبة وسراي الرمل بالإسكندرية وعدة قصور أخرى، كما اهتم بالري والزراعة من أجل إنماء ثروة مصر الزراعية بتوفير وسائل الري، فكان لهذه الوسائل الفضل الكبير في زيادة إنتاج الأراضي المزروعة وإحياء موت الأراضي القابلة للزراعة، وشق الترع من أجل الري، وقام بشق ١١٢ ترعة، أشهرها ترعة الإبراهيمية التي أنشئت في عهد إسماعيل، وتعد من أعظم منشآت الري في العالم قاطبة وقت إنشائها، وهي تأخذ مياهًا من النيل عند أسيوط وتنتهي عند أسمنت بمديرية بني سويف، بالإضافة إلى شق العديد من الترع في مختلف محافظات مصر.

وكان إصلاح القناطر الخيرية وقناة السويس من أول المسائل السياسية التي واجهت إسماعيل في أوائل عهده بالحكم، إذ كانت

أنظار الأوروبيين متطلعة إلى ما يؤول إليه مصير القناة، بعد وفاة سعيد باشا الذي عُرف عنه، أنه كان مهتمًا وسندًا للمشروع وقوامه، لذا ففي أول اجتماع لإسماعيل بوكلاء الدول، أوضح لهم عزمه على تأييد المشروع واستكماله.

انبهر إسماعيل بالمزايا التي نالتها الشركة المنفذة للمشروع في عقد الامتياز، فسعى جاهدًا لتحقيق تلك المزايا، وكانت هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد باشا.

ويذكر عنه المقولة الشهيرة: (إني أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة) وقيل أنه فكَّر يومًا أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع، وبالفعل لو تحققت هذه الفكرة لكانت القناة ملكًا كاملاً لمصر، إلا أنه لم يفعل، وسعى جاهدًا إلى تغيير شروط الامتياز.

وانتهى العمل بالقناة واتصلت مياه البحر الأبيض بالبحر الأحمر في نوفمبر سنة ١٨٦٩، فكان العمل قد استمر عشر سنوات وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترًا، وأنشئت على شاطئها مدينتا بورسعيد والإسماعيلية، وافتتحت للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩.

وأقام إسماعيل احتفالات فخمة بهذه المناسبة التي لم يعرف التاريخ احتفالات تماثلها وكان كل ما فعله في تلك المناسبة هو إظهار مدى حضارة مصر، ومدى النفوذ الذي أصبحت تحتوي عليه هذه البلاد.

وما جعلني أدقق وأسترجع تاريخ هؤلاء الثلاثة، هو مدى عبقرية كل واحد منهم، وكيف تمكن محمد علي من بناء جيش قوي، سخر له كل شيء لأنه اعتبره كيانًا لأي دولة قوية عظيمة.

إن إسماعيل حاكم عظيم ظلمه المؤرخون، وخلدته إنجازاته، لأنه لم يكن سارقًا أو منحرفًا، لكنه قام ببناء مصر بمستوى غير مسبوق، حتى صارت القاهرة في عهده تضاهي لندن وباريس جمالاً، كما تمكن بعبقريته خداع العالم كله لصالح مصر.

أما بالنسبة لجمال عبد الناصر فقد سبق أيضًا، وتطرقتُ إلى ما قام به من أجل نهضة هذا البلد وأيضًا قام بعض المؤرخين بتزييف بعض الحقائق ونسبها للبعض مع أن التاريخ لا يموت وصعب جدًا تزييفه، وسوف يذكر هؤلاء العظماء وما قاموا به من أجل نهضة هذا البلد، وخير دليل إنجازاتهم المخلدة التي يذكرها العالم الغربي والعربي حتى الآن...

ودائمًا نرى أن الثلاثة مشتركون في أغلب الإنجازات من أجل نهضة مصر.

وأن ما يحزن هو إن كل هذه الإنجازات العظيمة التي قام بها هؤلاء أصبحت بمثابة عشوائيات في ظل من خلفهم في الحكم بعد ذلك.